

فى قلب المعركة

(وليال عشر)

«بسم الله الرحمن الرحيم»



مقاتل تحت مظلة الإيمان

فى كنف الله

عشرة أيام للعودة من سيناء (أبو عجيلة)

من ٣١ / ١٠ / ٥٦ إلى ١٠ / ١١ / ١٩٥٦

بقلم المقاتل محمود عبد الحميد الثلث

مقدمة :

لما انتهت معركة الصبحة فى صيف عام ١٩٥٥ ، بحث المسؤولون عن ضباط المشاة المتدربين خارج السلاح لتدعيم الكتائب فى سيناء فالتقطوا خمسين ضابطا كنت أنا أحدهم مأمور عتاقة إلى الكتيبة ١٨ مشاة فى أبو عجيلة .

تدربنا فى هذه الكتيبة على العمليات الحربية الهجومية التى كان متوقعا أن نقوم بها على اليهود ، حتى انتقلنا إلى مواقع « أم كتاف » وأصبحنا فى موقف الدفاع مع بعض الواجبات الهجومية الأخرى كالهجوم على الموقع اليهودى ببئر الملاقى .

جرت عدة تحسينات كبيرة وكثيرة فى الموقع الدفاعى الذى كان يعتبر أقوى موقع فى منطقة سيناء الوسطى ، وكان يعتمد عليه فى صد الهجوم الرئيسى صوب العريش أو الإسماعيلية .

كان هذا الموقع مشرفا على طريق القسيمة أبو عجيلة ، وطريق العوجة أبو عجيلة . ورغم أن هناك طرقا أخرى طبيعية على يمين هذا الموقع ويساره ، ووديانا كثيرة كان من الممكن لليهود أن يعبروها دون أن يخترقوا مواقع ، إلا أنه من المدهش حقا أن تنطح القوات اليهودية صخرة مواقع أم كتاف العاتية لتبوء بالفشل أكثر من مرة .

لا أدرى لماذا لم تطوَّق القوات اليهودية هذا الموقع ببعض القوات المدرعة وتتخذ سبيلها مع باقى القوات اليهودية إلى قلب الاسماعيلية دون أن تؤحِّز قوات الخلفاء الأنجلو فرنسيين يوما أو اثنين حسب الخطة المشتركة الموضوعة ليتلاقى الجميع فى الإسماعيلية وبور سعيد والسويس .

لكن يظهر أن قيادة حلفاء إسرائيل كانت قد قدرت القوات الإسرائيلية بمستوى أعلى من الواقع وقدرت القوات المصرية على الحدود بمستوى أقل منها مما أدخل بالجدول الزمنى لعمليات الهجوم ، وبالتالي فشل المعركة جميعها إذ لو كان موقع أم كتاف قد انهار من أول هجوم فى ٢٩ أكتوبر لكانت القوات المصرية فى سيناء وغزة فى موقف لا يحسد عليه واصبحت فالوجا أخرى كبيرة فى سيناء ولما أتاحت لباقى القوات فى العريش ورفع وقطاع غزة أن تنسحب غرب قناة السويس بنجاح ..

ولقد أثبتت معركة أم كتاف مقدرة الجيش المصرى من الناحية الفنية فقد كان التعاون محكما بين الأسلحة المختلفة ومن الناحية المعنوية فرغم الغارات ونيران المدفعية الكاسحة للعدو فإن القوات ظلت صامدة مدافعة وفى حماسة شديدة لملاقاة العدو . أما من الناحية الإدارية فقد حافظت القوات على المياه والتموين مدة أربعة أيام علاوة على المواد التموينية والأسلحة والذخيرة التى سحبت من عربات العدو المعطلة أمام الموقع نتيجة هزيمته وذلك رغم مفاجأة العدو للقوات بهجومه الخاطف ..

ولقد أثبتت المعركة أن الجيش المصرى هو جيش ضبَّاط فعلا . فعلى مستوى كفاءة الضباط وروحه المعنوية وشجاعته سيكون مستوى جنوده ، ذلك لأن صفاته تنطبع انطبعا تاما على وحدته . لذلك نجد أن قوات أبو عجيلة كانت ذات حظ وفير من الضباط الشجعان الذين دمروا أعصاب القيادة اليهودية ووحداتها وافقدوها وعى القتال والحرب الصحيحة فكانت حرب انتقام وغيظ وحسنى شديد فأحبالوا سماء الموقع إلى نيران الصواريخ والمواد الحارقة وقنابل الايات المدفعية المجمعّة خاصة على مركز رئاسة الموقع الذى كان عبارة عن ملجأ سقفه من الصاج العادى وغير مكسى بأى شئ آخر .

ولقد دارت المعركة فى أم كتاف بشدّة وقسوة لم ينقطع صوت طلقات المدافع الرشاشة فى أى وقت خصوصا فى الليل . وقد كنا فى ملجأ الرئاسة نسمع الدفقات الطويلة من جميع الجهات ، وكنا نظن أنها لصد هجوم أو لاكتشاف داوريات يهودية ولكنها كانت

تصدر من المواقع نتيجة يقظة الجنود الثامة وإحساسهم المرهف . فقد كان اليهود يتبعون سياسة الحركات الخداعية ليلاً بدرجة كبيرة ، ويحركون عرباتهم على الطرق الأسفلت ويضيئون أنوارها على بعد كبير ثم يطفئونها ثم تضاء مرة أخرى وكانت محركات العربات تظل دائرة طول الليل على الطرق الثلاثة أعنى طريق القسيمة ، وطريق العوجة ، والطريق الخلفى من أبو عجيلة التى كانوا يسيطرون عليها كلها .

ولقد ظللنا ليلة كاملة ساهرين لمواجهة هجوم مدرع منتظر من الخلف من جهة أبو عجيلة لأننا رأينا أنوار هذا الرتل المدرع من بعيد يتحرك تجاهنا وأصوات الدبابات تصك آذاننا فى هداة الليل . وبعض طلقات الرشاشات تصدر من مواقعنا نقول ظللنا ليلة كاملة على أهبة الاستعداد لملاقاة هذا الهجوم الذى طال انتظارنا له إلى أن طلعت الشمس ولم يتم .

ولا أدري حتى اليوم . . . لماذا لم نهجم القوات المدرعة اليهودية علينا من الخلف بعد أن سيطرت على الطرق الخلفية المؤدية للعريش والاسماعيلية وانتهت معركة تقاطع أبو عجيلة لصالحها فلقد كانت فرصة ذهبية لهم أن يطبقوا علينا من الامام ومن الخلف فى خطوة واحدة ووقت واحد . . . لكن لماذا لم تقم القوات اليهودية بذلك ؟ سؤال يظل بلا جواب .

ولقد كانت القوات اليهودية فى أثناء المراحل المختلفة للمعركة مكشوفة لنا فكنا نعلم تحركاتها وعناصرها من نقطة الستارة المصرية التى كانت تبعد عن الموقع الاصلى من ٤ إلى ٦ كيلو مترات ، وكان الاتصال تاماً فى المراحل الأولى للمعركة وكانت تحضيرات اليهود للهجوم مضروبة بمدفعيتنا مثلما كانت تجمعاتهم مضروبة أيضاً ثم كانت الأرض امام المواقع على سعتها مغمورة بنيران المدفعية والهاونات والأسلحة المضادة والرشاشات المتوسطة التى كانت تزيد على عشرين مدفعاً علاوة على الرشاشات الخفيفة والبنادق والأسلحة الأخرى .

وكانت وسائل الاتصال بنقطة الملاحظة وبفصائل المواقع تامة وجيدة حتى أثناء المعركة ، كان الاتصال مع المواقع الامامية تاماً للأسلحة وبالتليفون حيث كانت عربات الاصلاح ترم بين المواقع على الخطوط لإصلاحها أولاً بأول ، ولم تصب هذه الخطوط بطلقات المدفعية لحسن الحظ إلا نادراً وفى السرية الأولى .

وفى لحظة من اللحظات ، كنا قد قررنا أن نرسل ضابطاً بدائرية لتدمير قوات العدو على طريق العوجة ليلاً قبل هجومها فقد كنا نسمع أصواتها وحركاتها التى أخطرتنا بها نقطة الستارة ، ولكننا فضلنا بقاءه بالموقع لأهميته ، وخصوصاً بعد أن فقدنا بعض الضباط

المستشهدين فى أوائل المعركة ، ولتقننا بأن عربات العدو ستدمر آجلاً إذا ما هجمت علينا .
وهجم العدو أكثر من مرة حتى شن هجومه الرئيسى فى ليلة ٣١ أكتوبر الساعة الرابعة
فجراً وقد بدأ تحركاته هذه المرة أمام المواقع على غير عادته إذ كان دائماً ما يلتف حول المواقع
ليهاجمنا من الخلف . فلماذا غير اليهود تكتيكهم وهجموا بالمواجهة ؟ سؤال يحتاج أيضاً
إلى جواب . .

بدأ اليهود يلقون القنابل المضيفة لإنارة مواقعنا ، واشتدت تجمعات المدفعية بدرجة مركزة
على المواقع فشعرنا أنه لابد وأن يكون هو الهجوم النهائى . ورأينا قنابل مواقعنا المضيفة
تنطلق فى ظلام الليل من جميع المواقع ، وانطلقت أيضاً إشارات النجدة لنيران المدفعية
وأخطرتنا جميع المواقع الأمامية برؤية العدو وأرتاله المدرعة منتشرة أمام المواجهة بأكملها .
وانطلقت نيران مدفيعتنا لتسكت مدفيعتهم ثم غمرت العدو المهاجم أمام أسلاك مواقعنا .
وفتحت جميع الأسلحة نيرانها على اليهود وانطلقت المدافع المضادة للدبابات على عربات
العدو التى اشتعلت نيرانها وانطلقت قاذفات اللهب واقتحمت بعض العربات النصف جنزير
الاسلاك الشائكة ودخلت بعض المواقع واشتد وطيس القتال وقاوم الجنود ببسالة وحدثت
المعجزات من بعضهم وارتدت العربات التى اقتحمت السلك إلى الخلف وخرجت من المواقع
ثم دمرتها مدفيعتنا المضادة وأصبح الموقع الأمامى كتلة من النار والنور ذهل فيها اليهود
وتشتت جنودهم كل فرد يجرى إلى الخلف طالباً النجاة وفقدت القيادة اليهودية سيطرتها
على المعركة وبدأ نور النهار يبرز وتحركت عرباتنا المدرعة من خلف موقعنا حاملة جميع
الجنود الممكن حملهم فيها من احتياط وعساكر المراسلات والأمناء والمخزنجية وغيرهم .
وتحركت بسرعة إلى المواقع الأمامية للقيام بهجوم مضاد على نقطة فى الموقع كان فيها بعض
الجنود اليهود وما إن وصلت هذه العربات إلى النقطة الأمامية حتى كانت مدفيعتنا قد
أصلت اليهود فى هذه النقطة نيرانها الحامية فلاذ الجنود اليهود بالفرار وتركوا جثث
قتلاهم فى المواقع المصرية على غير عادتهم فلم يكن لديهم الوقت لأنقاذ غيرهم أو
سحب جثثهم .

ظلت اسلحتنا تطارد فلول العربات والجنود المبعثرين فى الميدان العائدين إلى مواقعهم
منكسى رؤوس الخزى والعار والهزيمة ، طأطأوا رؤوسهم والحقد والكراهية تملأ قلوبهم ثم
رأينا أشتات اليهود مجمعين فى أرتال راجعين إلى مواقعهم على بعد أكثر من ستة كيلو

مترات على طريق العوجة وعلى مكسر الفناجيل يسار الموقع إذ لم يكن حظ القوات التى كانت تهاجم يسار الموقع بأحسن من غيرها .

انجلى هذه المعركة القاسية الساعة التاسعة صباحاً وقتلى اليهود مبثرون فى الميدان بين الأسلاك وأمام المواقع المصرية وعرباتهم محترقة مشتعلة أمام المواقع . وألقى القبض على اثنين من الأسرى أحدهم جريح والآخر سليم كان مختبئاً فى عربته ولقد كانت نتيجة هذه المعركة رهيبة بالنسبة لليهود الذين اعترفوا بأنهم خسروا مائة قتيل أو يزيد فى هذه المعركة علاوة على الجرحى والمفقودين وعشرات المعدات الأخرى ، وما نال قلوبهم من الشعور بمرارة الهزيمة فى معركة حربية نظيفة لم تتكافأ فيها القوات إطلاقاً أودت بما حققوه من انتصارات زائفة قبل ذلك حيث لم يكن ليقابلوا قوات مصرية فيها أبداً كما لمسوا فيها تداعى آمالهم العريضة التى يحلمون بها على ضفاف النيل بوسائل الغدر والخداع ، فقد قابلوا جيشاً مصرياً كفء ردهم على أدبارهم وسوف يرددهم كذلك أبداً الأبدى إن شاء الله . كما سقطت دعايتهم أمام العالم وحلفائهم على الأخص بضعف الجيش المصرى وسهولة القضاء عليه وباءوا بالخزى مع الفشل فى تنفيذ الخطة المشتركة فى الوقت المطلوب .

ومما يثير الدهشة أن موقع أم كتاف كان عرضة لاستكشاف العدو الجوى ودورياته الأرضية وجواسيسه المختلفة سبع سنوات كاملة كان المفروض بعد ذلك أن تكون لدى اليهود خريطة مفصلة كاملة عن جميع مواقع الأسلحة المختلفة فيه ، لكن الذى حصل هو أن قوات اليهود المدرعة فوجئت بنيران المدفعية المضادة للدبابات مما أدى إلى انهيار موجة الاقتحام الرئيسية وانكسار خط الهجوم الأساسى بشكل شتت الجنود من فوق العربات إلى الخلف طلباً للنجاة والنجدة فلقد تعطلت جميع العربات عدا اثنتين اقتحمتا الموقع وانسحبتا فوراً واشتعلتا بمن فيهما ، وهرب بقية الجنود . ولقد وجدنا بعض هذه العربات دائرة والبعض الآخر واقف لم تصبه طلقة ولكن هجرها أصحابها ولم يتابعوا التقدم .

ولقد تعجبت لانتشار عربات اليهود على مواجهة الموقع فى رتل منظم ، وبجوار بعضها البعض دون مراعاة للانتشار .

ولم تشترك مدفعية العدو أثناء الاقتحام بضرب المواقع الخلفية كالمفروض حتى تمنع الإمدادات الخلفية فقد أوقفت المدفعية الضرب نهائياً قبل الاقتحام بوقت كبير . كما لم يشترك الطيران الإسرائيلى فى معاونة القوات المهاجمة عند أول ضوء .

وإنى أعتقد أن المشاة لم يكن لها أثر فى المعركة فقد ظلت قاذفات اللهب الفردية تطلق نيرانها على بعض المواقع وقام بعض الجنود وكانوا قلة بالهجوم على المواقع ولكنهم لم يستمروا فوق الموقع دقائق معدودة حتى قتلوا أو ارتدوا اللهم إلا فى موقع السرية الثالثة الذى تمكن بعض اليهود من احتلال موقع فصيلة منه ولكنهم لم يستمروا على الموقع حيث أصلتهم مدفيعتنا بنيرانها ولحققتهم عرباتنا المدرعة تحمل جنود الهجوم المضاد فلاذ اليهود بالفرار وأصبح ميدان المعركة خالياً إلا من مصفحاتهم المشتعلة وجثث قتلاهم المبعثرة .

وأعدنا تنظيم أنفسنا ، وجردنا الذخيرة الباقية فوجدناها قليلة فقد نفذت ذخيرة الهاون والرشاشات المتوسطة وبعض القنابل الأخرى بينما توفرت قنابل المدفعية .

وجردنا التموين الذى لم يبق منه إلا القليل وكذا بعض المياه القليلة المخزونة فى فناطيس بمنطقة الشئون الإدارية .

ثم حصرنا أعداد الشهداء والجرحى فكانوا قلة بالنسبة لهذا الهجوم الضخم .

ولم نكد نبدأ فى تنظيم مواقعنا من جديد وإعادة إمدادها حتى ظهرت الطائرات الميستير فى الجو بالأسراب . . . وكانت الساعة ١٢ ظهراً عندما راحت تضرب مواقعنا وتحرق العربات اليهودية التى لم تشتعل قبلاً بالصواريخ وغيرها ، وذلك فى نفس الوقت الذى كنا نحاول فيه سحب هذه العربات التى كانت بها أسلحة وذخيرة ومواد تموينية ومياه وغيرها .

ولم تتركنا الطائرات الميستير تنفذ ما أردنا فقد كان الهجوم شديداً جداً علاوة على ضرب مدفعية العدو المتوسطة لمواقعنا .

وفى هذه الأثناء حضر العقيد مصطفى الجمل قائد آلاى المدفعية وقرر إنه أصبح مكشوقاً فى منطقته الخلفية وإن الرتل المدرع اليهودى فى تقاطع أبو عجيلة سيصله حتماً بعد قليل ويدمره نهائياً ، واقترح أن يدخل بمدافعه فى قلب الموقع حيث يجد الأمن ويستطيع الدفاع عن نفسه .

ولم يكن أمامنا إلا الموافقة رغم ضيق الموقع لاستيعاب آلاى مدفعية بالكامل خاصة وأنه لم يكن قد نظم الموقع من قبل على هذا الأساس . ولكن جاء الآلاى بعرباته الكبيرة الكثيرة ومدافعه وتسبب فى ازدحام الموقع الخلفى بالقرب من مركز الرئاسة . ونكدست عرباته المحملة بالذخيرة ومدافعه فى رقعة ضيقة جداً ، مما لفت نظر اليهود فأمطروا هذه المنطقة بقنابل الطائرات والمدفعية حتى اشتعلت معظم عربات الذخيرة وتعطل بعض المدافع

وأصبح مركز الرئاسة فى وسط جحيم من النيران إذ راحت القنابل تتساقط بكثرة على بعد أمتار حول مركز الرئاسة .

ظللنا على هذا الحال حتى الساعة الواحدة والنصف ظهرا حتى وصلنا قائد اللواء الأميرالاي سعد الدين متولى وأراد الاجتماع بقواد الكتائب وقواد ثوانى وباقى القواد وحضرنا الاجتماع وقرر قائد اللواء انه لم ير بسالة ولا شجاعة مثل ما رأى من هذه القوات وإنه لفخور بتولية رئاسة هذا اللواء ثم قرر أنه خير بين البقاء والانسحاب المنظم على الأقدام حيث أتم العدو حصارنا من جميع الجهات فتقرر الانسحاب . وانقسمت القوات إلى ثلاث مجموعات كل مجموعة لها قائد وضباط ونشرت الخرائط ورصدت الزوايا وتقرر السير فى أول مرحلة أربعين كيلو متراً حتى بئر الحفن ، وتحددت ساعة البدء لأول مجموعة السادسة والنصف مساء .

الانسحاب

جمعنا قواد السريا وأخطرناهم بقرار الانسحاب فحزن الكثير واستمعنا للراديو فعلمنا الموقف العام وكان الانسحاب هو الفرصة الوحيدة للنجاة والإفلات من الموت أو الاستسلام حيث إن الذخيرة أمست لا تفى معركة أخرى خصوصا وأن القواعد الخلفية للقوات فى سيناء كانت قد سحبت ولا يمكن البقاء فى المواقع دون تموين أو ذخيرة .

كان قرار الانسحاب أخطر قرار صدر فى هذه الظرف التى جعلته حتمًا ، وكان مجازفة جريئة للأفراد واختيارًا قاسيًا لقوة تحملهم وصبرهم على الجوع والعطش والإرهاق للسير مسافة أربعين كيلو مترًا خلال التباب الرملية الناعمة العالية البيضاء المسماة بمكسر الفناجيل وكان عليهم أن يقطعوا الوديان الكثيرة التى تجوسها داوريات اليهود وتقف على مخارجها قواتهم الميكانيكية .

أقول الحق أنه لم يدر بذهن أحد تلك الأهوال التى صادفناها فى الطريق ، كما لم يدر بخلد أى فرد طول المسافة مع قلة الماء والطعام وسائر المتاعب والمشاق .

ولكن عزيمة الأفراد كانت من حديد وتصميمهم جبارًا لا يقف دونه حائل .

وصددت الأوامر بأن لا يذاع أمر الانسحاب إلا بعد آخر ضوء . ولأول مجموعة فقط ، وأنه يجب تدمير جميع العربات والمعدات الثقيلة أو حرقها قبل الانسحاب على أن يحمل الأفراد أسلحتهم الشخصية وذخيرتها لاستخدامها عند اللزوم ، وأنه يجب على الأفراد كذلك حمل ما خف حملة من التعيينات والمهمات مع حرق جميع الأوراق والمستندات المهمة قبل الرحيل .

وتقرر أن تبقى مجموعتان فى مواقعهما لستر انسحاب المجموعة الأولى وهكذا . ولكن سرعان ما ذاع خبر الانسحاب وكنا قد قاربنا الرابعة عصرًا وبدأت الجنود تتجمع استعدادًا للانسحاب ، ونشط الأفراد فى تكسير وتخريب العربات وحرق المهمات فزادت الحرائق بالموقع خاصة فى منطقة المدفعية .

لذلك بذلنا جهدًا كبيرًا لوضع الأمور فى نصابها حرصا على بقاء الخطة صالحة للتنفيذ وحتى لا نكشف عزمنا على الانسحاب .

ولقد ساعدتنا الأقدار فى إخفاء استعدادنا للانسحاب فلقد تسبب قصف طائرات العدو ومدافعه لمواقعنا فى اشتعال النيران فى عدة عربات للذخيرة ومنها ذخيرة المدفعية فكانت تنطلق تلقائيا أثناء الاستعداد للانسحاب وأثناء الانسحاب الفعلى مما خدع القوات اليهودية بأن الموقع حى بأفراده ويطلق النيران ، إذ ظل صوت الطلقات المشتعلة يستر انسحابنا حتى ثانى يوم ، فلما قامت قواتنا بإشعال النار فى معدائنا لم يكن ذلك ليكشف عملية الاستعداد للانسحاب ، وأغلب الظن أن اليهود كانوا مغتبطين لزيادة الحرائق فى الموقع ، ولم يدر بخلدهم أنها عملية تدمير لعتادنا تمهيدا للانسحاب . ولقد طارت فوق المواقع الساعة الخامسة مساءً طائرة استكشاف وطائرات ميسير أخرى لا أدرى لماذا لم تلاحظ عمليات تجمع الأفراد وعمليات التدمير التى كانت دائرة على قدم وساق .

أغلب ظنى أن اليهود لم يشعروا أننا نستعد للانسحاب ، أو أنه يمكننا أن ننسحب خصوصا وهم محيطون بنا من جميع الجهات ، علاوة على أن أقل مسافة يتعين على الوحدات أن تسيرها لأقرب موقع مصرى هى أربعين كيلو مترا ، أعنى موقع بئر لحفن .

والواقع أنهم لم يعلموا أن القوات فى أم كتاف انسحبت يوم ١٠ / ١ / ١٩٥٦ لأن الموقع ظل يضرب بطلقاته الصغيرة والكبيرة نتيجة احتراق صناديق الذخيرة كما قلت طوال هذا اليوم واليوم التالى .

ولذلك أيضا لم يدخلوا الموقع فى عصر اليوم التالى ٢ نوفمبر ، إلا بخطة تكتيكية كاملة على اعتبار أن المواقع مازالت حية أو نتيجة لخشيتهم وخوفهم من العمليات الفاشلة .

أو ليقال . . . إن الموقع هوجم ثم هزم ليصنعوا من احتلال موقع خالٍ من القوات أسطورة يترغمون بها فيما بعد .

الخطو نحو المجهول

كنت فى مجموعة الانسحاب الثانية بما يعنى أن تكون المجموعة جاهزة عند السبابة الخلفية للموقع الساعة السابعة إلا الربع مساءً وسرنا على الطريق الاسفلت بضعة أمتار تاركين الحرائق متأججة فى العربات ، وأصوات الذخيرة المشتعلة تدوى فى الفضاء . وعندما أرخى الليل سدوله ونحن نمر بجوار بعض هذه الحرائق رأينا أشباح الأفراد الذين سبقونا بجوار هذه النيران المشتعلة واضحة كأنهم على شاشة حمراء .

كانت أعصابنا متيقظة لكل شئ ومتنبهة لأية حركة ، وشملنا إحساس بضرورة الابتعاد عن نظر ونيران العدو بشكل كبير جداً حتى إننا كنا نمر خلال الوديان فنرى الأنوار الكاشفة لدبابات العدو تغمر هذه الوديان بالأنوار فكلما وقع الشعاع تجاهنا نرقد صامتين حتى يتعد الشعاع فواصل السير .

كنا نود فى هذه الليلة أن نهب الأرض نهياً حتى لا يبرز علينا فجر اليوم التالى إلا وقد بعدنا بالمسافة الكافية التى تضمن لنا الأمان .

لقد كان سيراً مرهقاً جداً والوقوفات قصيرة للغاية . وتقدم الرتل أربعة من خيرة الضباط هم البكباشى اسماعيل صبرى والملازم مصطفى عبد الكافى والبكباشى طلعت عابدين وأنا ، ثم مجموعة من ضباط الصف منهم الباشجاويش حسن مطر والأمباشى سائق عطش ، كحملة القماقم للمحافظة على اتجاه السير ، وغيرهم يعد الخطوات حتى نعلم كم سرنا بالكيلومترات ، وهى مهمة شاقة ودقيقة .

كان خط السير يضطرننا أن نقطع الوديان عموديا بأجانبها الشاهقة وعلى حواف رمالها الناعمة فكنا نتساند على بعض ونشد بعضنا عند قمة هذه المرتفعات . وما يكاد الواحد منا يصل إلى القمة حتى يرتقى على الأرض من شدة التعب وانقطاع النفس بل إن قلب الإنسان يكاد يتمزق فقد كان الجهد شديداً على القلب وعلى جميع أجزاء الجسم .

وقد زاد من عناء هذا السير انعدام المياه فى الطريق فلا آبار ولاخيام للعرب يمكن الخروج عليها ، ولقد حدث لى شخصيا قبل الانسحاب وأنا فى الموقع أن ملأت الزمزية وكذلك

علبة كانت فيها أحدى ملائها (بالكيك) وكذلك الباطور ، وأعطيت هذه الأشياء جميعاً للمراسلة وأمرته بالتحفظ عليها لعلها تنفعنا أثناء السير . فكما سرنا كنت أنادى على المراسلة فكان يحضر ومعه هذه الأصناف وكما كنت أتم على هذه الأشياء فى كل وقفة ، كنت كذلك أتم على الدكتور يوسف عطا الله حيث كان متعباً للغاية فهو طبيب الوحدة ذو الستين خدمة ولم يتعود على مثل هذه الأمور أو سار طيلة حياته مثل هذا السير الشاق الذى أنهكه ، وكان معه أمباشى يحمل حقن استركتين وكورامين فلما شعر برطوبة التعب أخذ حقنة كورامين وأخذت أنا أيضاً حقنة استركتين وذلك أثناء وقفة من وقفات السير . وفى هذه المرة طلبت المراسلة وسالته عن المياه فقال إن الزمزية وقعت منه أثناء السير . فسألته عن (الكيك) فقال أن العساكر أكلوه فكانت مفاجأة مزعجة إذ إننا مازلنا فى منتصف الطريق ، إن لم نكن فى أوله والله أعلم .

وبدأت الذاتية تدب فى نفوس البعض الذى أهمته نفسه حتى ولو سقط الباقون أثناء السير من الجوع أو العطش أو الإنهاك . ولا تعجب من هذه التصرفات إذا تذكرت أن الطريق عر وطويل وكل فرد يهمه أن ينهب المسافات ليصل مبكراً إلى بئر لحفن حيث المحطة الأولى . وراح الأفراد يتساقطون فى الطريق من المجموعات الثلاث ، وكنا نمر عليهم فنجدهم نائمين من شدة التعب . . وكان النائم يصحو فلا يجد أحداً حوله فيهرع ليلحق بزملائه على خط سير القوات المنسحبة . . مسترشداً بأنارهم على الرمال الواضحة جداً ، وكان القمر ساطعاً مما سهل مهمة قص الأثر .

ولقد تناولت حقنتين من الاستركتين والكورامين أثناء الطريق لشدة تعبى ، خاصة وقد حرمنى المراسلة من الزاد الذى كنت معتمدا عليه ، كما حرمنى من الماء الذى ينعش الروح الميتة والخلق الجاف الملهب ، وظللت أسير دون مياه حتى تقابلت مع الإخوان على بئر مياه فى لحفن فى منتصف الليلة التالية بعد أن كادت تزهق أنفاسى من شدة العطش .

نعود إلى السير مرة أخرى ، فسرنا حتى بزغ الفجر علينا ونحن قسرب بئر لحفن تقريبا ، أى قطعنا ما يقرب من خمسة وثلاثين كيلو متراً فى ست ساعات هبوطاً وصعوداً على مرتفعات وكثبان رملية ناعمة .

ونقصت المجموعات الأصلية وأصبحت أقل عدداً إذ لم يعد فيها غير القادرين سويًا على متابعة السير ففقدنا أصدقاءً كثيرين وإخواناً أعزاء . وعند طلوع الشمس رأينا الطائرات

تقوم فوق رؤوسنا فكانا نلجأ للاختفاء فى الأعشاب المنتشرة بالوديان وغيرها . وظلّت هذه الطائرات تروح وتغدو فى السماء من رفح إلى العريش وبالعكس تدكّ بالقنابل كلتا البلديتين وكنا نسمع دك القنابل . ظلّت هذه العملية طوال النهار وابتدأت الشمس تحمر ونشعر بحرارة الجو فكان لا بد لنا من خلع النعال لسهولة السير وتخفيف الثقل علينا فى هذه المرحلة تفرقت الجنود إلى وجهتين : فذهبت إحدهما فى اتجاه الطريق الأسفلت المؤدى إلى العريش عند نقطة البوليس الحربى ، بينما راحت الأخرى تلتف حوف مواقع بئر الحفن ثم الطريق الأسفلت بعدها وقد ذهبت أنا فى الطريق الثانى ، وأغلب ظنى أن الذين اختصروا الطريق وساروا فى الطريق الأول كان نصيبهم الأسر أو القتل حيث إن الطريق كان مفتوحا لعربات اليهود من تقاطع « ابو عجيلة » إلى بئر الحفن .

سرت فى الطريق الآخر وهو طريق طويل عن اختيار ، واتبعت وادى العريش المخيف الملتوى الجاف ولكنه كان مستورا . وقابلنا الزميل زكريا خليل الذى اتفق مع زميل آخر على استئجار جمل لى وله . وانتظرت طويلاً حتى الظهر ولكنه لم يحضر فسرت وحدى . . سرت وحدى فى هذه المرحلة وأنخنت نفسى بالسير فى وادى العريش ، وكنا نحن المسحيين نتقابل ونفترق وهكذا حتى حل بى العطش إلى الدرجة القصوى وعضنى الجوع ، ولم تنفعنا أى شجرة قابلناها فى الطريق حتى شجر التين فقد كان يلوح لنا أن حوله بعض الماء أو الأكواخ ولكننا كنا لا نجد إنسانا حولها . . فحاولنا أكل الورق الأخضر الصغير من هذه الأشجار ولكنه كان جافا حاداً كالشوك فى حلقونا الجافة أيضا منذ يومين . رأينا بعض حبات التين الصغيرة فقلنا نتبّع بها ، وقد كان مذاقها مرّاً لاذعاً إلا أنها ملأت فراغ بطوننا - واشتدت الشمس علينا وأصلانا الظهر بقيظه رغم أننا كنا فى نوفمبر فأخذ منا العناء والإنهاك كل مأخذ ، حتى إن الإنسان كان يسير عشرة أمتار فيجد نفسه مرهقا غير قادر على السير فيرمى تحت أى عود من الشجر فى هذا الوادى حتى إذا ما استرد أنفاسه قام ليخطو عشر خطوات أخرى قبل أن يتعب ويرتمى على الأرض . . وهكذا .

ولذلك فإن هذا الوادى قد امتلأ بملايس الجنود المتعبين من حملها ، وكذلك بعض المهمات الأخرى الثمينة . . متكسرة أو مخلوعة أجزائها أو غير ذلك .

كان المهم أن نقطع المسافات حتى نصل إلى بئر المياه فى الحفن ، ولحقنى أحد الزملاء فى منتصف الطريق وكانت معه بوصلة فمشينا معاً حتى إذا جن الليل نشطنا بفضل

البرودة . ورصدنا الطريق الأسفلت حيث رأينا بعض العربات تمر عليه من بعيد . وسرنا على الزاوية بالبوصله ولكن المسافه كانت أطول مما نظن فاضطررنا إلى التقدم بعض الوقت وقمنا بنشاط حتى وصلنا إلى الطريق الأسفلت ، وكانت الساعه حوالى منتصف الليل .

فى الواقع فوجئنا بالأسفلت ونحن عنده ، وكنا نعتقد أنه مازال بعيداً ، وقد نفعتنا هذه البوصله كثيراً حيث أراحتنا من الاعوجاج فى السير .

وعندما وصلنا إلى الطريق الأسفلت وجدنا أنفسنا قبل موقع بئر لحفن فهرعنا إليه لنجد أفواج الجنود المنحبه تعج بهذا الموقع الخالى الذى انسحبت منه قواتنا بالأمس . وحتى لانضيع الوقت سألنا عن مكان بئر المياه فهرولنا إليه وسمعنا ضجيج الجنود فى هدأه الليل عند البئر . انفتحت أسارير الحياه لنا على مصراعيها وفرحنا فرحاً بالغاً فقد رأينا الماء بعد ٤٨ ساعه من تركنا الموقع . وكان الزحام شديداً للغاية على الماء ووجدت زكريا خليل زميلى على قمة البئر يدافع بمنكيه وبجسمه كله لينظم عملية الشرب بين الجنود ، وكان أحدهم قد نزل فى البئر ليشاوى زملاءه وكان بطلا مجهولاً لأعرف اسمه للآن . إنه أحد الأبطال المجهولين فلقد ظل وهو على حاله هذا يسقى آلاف الجنود المهروله إلى هذا البئر وشربنا كثيراً من المياه على قدرتها وتلوثها ولكنها كانت الذ شربه ماء فى حياتى وأسعدها أثراً فى نفسى ونفس كل مخلوق . وتحولنا لبئر آخر بجانبه وشربنا منه أيضاً رغم أنه كان مليئاً بالديدان والتراب . ولكن ماذا نفعل والعطش جبار والحياه جميله ، المهم أننا شربنا حتى ارتوينا .

فى هذه الاثناء قابلنى البكباشى طلعت عابدين والملازم الاحتياط عبد الكافى بعد انفصالهما عن زملائهما فترة وسألونى هل تركب جملاً ونكون سويا فى السرحه . فقلت لهم أين أين هو الجمال . نعم طبعاً (ياريت) يكون فيه جمال .

المهم اتفقنا على أن نكون سويا وكان معهم جملان ناقة لا صاحب لها وجمال مؤجر من رجل إعرابى أجره أحد الزملاء ولم نعر عليه فى ظلام الليل رغم بحثنا عنه كثيراً عقدنا العزم نحن الثلاثة ضباط ومعنا عسكري من وحده البكباشى طلعت عابدين وملأنا جراكن مياه وتركنا منطقه الآبار إلى الطريق الأسفلت . وهناك عند بوابة موقع بئر لحفن وكانت الساعه الثانيه صباحاً بحثت عن البكباشى على عبد الخبير قائد كتيبتى - ليركب معنا الجمال

ولكن لم أجده ووجدت الأركان حرب اليوزباشى عباس فركبته الجمل الذى خصنى فلم
 تمكن نحن الاثنين من ركوبه حيث كان صغيرا لا يصلح لركوب أكثر من فرد واحد ولذلك
 قرر هو الانسحاب وبدأت الجمال تسير وفى هذه الوقفة تجمع حولنا جنود كثيرون من
 المنسحين فأمرتهم بعدم المبيت هذه الليلة فى بئر لحفن حيث لابد وأن اليهود لاحقون بهم
 بين دقيقة وأخرى ، وأمرتهم بالسير فى اتجاه العريش .

تحركت قافلتنا بدله الإعرابى الدليل واتجه بنا جنوب بئر لحفن فى اتجاه الغرب إلى
 جبل رويس القط ولقد وجدت بطاطين كثيرة ملقاة على الأرض من متخلفات الجنود وكان
 الجود باردا فالتقطنا بعضها وتلفحنا بواحدة على أكتافنا وسارت الجمال تقطع الصحراء ليلا
 ووراءنا جمع كبير من الجنود الذين استمعوا لنصيحتي حتى اختفينا فى جبل الرويس على
 بعد ٣ كيلو مترات تقريبا من البئر ، وكنا نسمع أصوات الجنود المتزاحمين على المياه
 وصراخهم ومناداتهم لبعض لأن الأصوات تسمع لمسافات طويلة فى الليل .

هجعنا محل وصولنا وانتوينا النوم حتى قبل أول ضوء ثم نتابع السير إلى قرية مزار ،
 وهكذا كان الاتفاق مع الدليل العربى . ولكن راحت علينا نومة وظلعت الشمس ومازلنا فى
 مكاننا حيث سمعنا أصوات دبابات اليهود وعرباتهم تعج حول موقع بئر لحفن ثم تلتها
 أصوات المدافع الرشاشة وأصوات الافراد فحزمنا أمتعتنا بسرعة وذعر الدليل العربى
 الذى لبس (خفه) وانتهز فرصة انشغالنا بأنفسنا وأخذ جملته وجرى به واختفى عنا فى
 ملح البصر ، فلم نعثر عليه بعد ذلك على الإطلاق ، وأفلتت منا فرصة ذهبية هى دليل معه
 جمل كان يسهل علينا عملية السير ومعرفة الطريق ، ثم الراحة فى ركوب الجمل وأصبحنا
 ثلاثة ضباط وعسكرى مع ناقة واحدة .

حمدنا الله على أى حال ولم نترك الوقت يسرقنا حيث كانت أصوات الدبابات
 تتجه إلى مكاننا فى الجبل أو قل كان يتهاى لنا ذلك ، وشعرنا أن الدبابات قادمة بين آن
 وآخر خصوصا وقد كان حولنا رهط كبير من الجنود كان القبض عليهم يعتبر غنيمة كبيرة
 لذلك أمرنا الجنود حولنا بالانتشار ومتابعة السير فوراً ، والسير فى مجموعات صغيرة حتى
 تقل الإصابات إن كانت هناك غارات أو غيره وحتى لا نلفت نظر العدو إلى
 حشودنا الكبيرة .

سرنا وحدنا بالناقة دون دليل إلى الجنوب قليلا لكى نتفادى الطرق المطروقة وفعلا

غابت عنا اصوات الدبابات والعربات اليهودية وصعدنا فوق التلال الصفراء ورأينا طريق العريش عن بعد ومطار العريش والبحر بعيد جداً .

وتبعنا عسكري آخر خلاف الذي كان معنا وكان اسمه معبد والتصق بنا التصاقاً فضممناه إلى مجموعتنا واطلقنا عليه اسم متعب تدليلاً منا وكان هذا الجندي فكاهتنا طوال الطريق إذ كان خفيف الظل روحاً عنا كثيراً من عناء السفر وأعاننا على مشاكلنا الإدارية في جلب الماء من الآبار وفك وربط الجمل هو وزميله الآخر . توكلنا على الله في السير وقدرنا اتجاهنا وقررنا ألا تغيب العريش عن ناظرنا حتى لا نتوغل في جوف الصحراء دون مبرر .

كانت الأرض رملية علكية بها مدقات كثيرة محيرة ولذلك قررنا قطع المسافة رأساً جنوب العريش أولاً كأنها زاوية بوصلة وبذلك أجهدنا أنفسنا واشتد بنا الظمأ رغم وجود جيركن مياه معنا ولكننا كنا نحسب حساب الوقت . وحرقتنا الشمس في هذا الجبل وحاولنا عبثاً العثور على شجرة كبيرة أو ما يقينا لفحة الشمس فكان نادراً وكنا نتجمع بجوار شجيرة صغيرة لها نصف متر ظل تقريباً كي نوارى رؤوسنا فقط في هذا الظل وكنا نحفر في الرمل الساخن حتى نصل إلى قاعه الرطب اللطيف فندفن رؤوسنا وأطرافنا وصدورنا حتى نشفى غلة الحرارة ، ويعوضنا بعضاً من شرب الماء .

جفت حلوقنا وتذرعنا بالصبر الجميل . . ولكن ماذا نفعل بالناقة ؟ . وما ذنبها معنا في هذا الحر اللافتح والجوع الشديد ، علماً بأننا لو أطلقناها لحالها لرعت وخدمت نفسها بنفسها .

قاربت الشمس الزوال وتابعتنا السير حتى وجدنا معجزة أمامنا ، إذ دخلنا في حقل بطيخ أو سمه آثار حقل بطيخ تتناثر فيه بضع الشجيرات الخضراء الباهتة ووجدنا ما يشبه (القطة) ففرحنا وهللنا وكبرنا وحمدنا الله ونعمه وفضله وجوده وكرمه فقد كانت هذه الثمار طعاماً وبرداً وسلاماً في حلوقنا في فترة حر عصبية . . أكلناها وأكلنا قشرها الذي التصقت به رمال كثيرة .

كانت هذه أشهى أكله تناولتها ، كما كانت بداية فآل سعيد لنا ارتاحت لها نفوسنا وشجعتنا على متابعة السير واعتقدنا أن الله سيجعل لنا من بعد عسر يسراً وأنه سبحانه وتعالى معنا لاشك في ذلك .

أمدتنا تلك الوجبة بالقوة على النهوض والنشاط والجد فى السير حتى قاربت الشمس المغيب حيث شاهدنا ولدين إعرابين ففرحنا وقلنا جاء فرج الله وبعث رسله إلينا وفعلا قابلنا هذين الولدين واتفقنا معهما على أن يرشدانا إلى محل بيتهم أو إلى أقرب بيت وسوف ينالان منّا مبلغاً كبيراً وهدايا أخرى .

فوافق الولدان وسارا بنا مسافات طويلة حتى أوصلانا إلى « بئر المسمى » فى منتصف الليل تقريبا ، وهناك وجدنا اشجاراً كثيفة عالية كثيرة وآلاف من الجنود المنسحين قاعدين فى مجموعات كل مجموعة معها بعض الأعراب ووسطهم نارا موقدة للتدفئة مع الأحاديث المختلفة . كان نصيبنا عند رجل طيب من قبيلة السواركة وكان تقيا يعمل بالتليفونات فى الحكومة المصرية ولا أذكر اسمه . أحاطنا هذا الرجل ومن معه بعناية ورّحّب بنا أجمل ترحيب وأحضر لنا شايّا وأوقد نارا وشربنا ماءً كثيراً عذبا وحلوا من هذه البئر واستمتعنا بالشاي بعد أربعة أيام من مغادرة بئر الحفن وأحضر لنا أرغفة من الشعير الأسمر بقشرة . لم نفحص فى الواقع أى شئ مما قدم لنا فقد كان الجوع شديداً والعطش أشد والحاجة إلى الدفء كبيرة .

أسلمناه الناقة وأحضر لنا مشمعاً كبيراً غمنا تحته حتى الصباح .

كانت هذه أول مرة أنام فيها ملء الجفنين وأنا مرتاح النفس آمن . وأول مرة أشعر فيها بالدفء منذ أول يوم للمعركة التى لم نكن أنا والقائد والأركان حرب الموجودون فى الملجأ ننام اللهم إلا « تسيلة » خاطفة على الكراسى والسرائر بالدور يوقظنا فى كل دقيقة أو أقل جرس التيفون نستلقى الإشارات والبلاغات من المواقع المختلفة ونتابعها بإصدار الأوامر والتعليمات وهكذا .

لم أنم إلا فى هذه الليلة عند بئر المسمى ، وكذلك نام إخوانى .

واستيقظنا فى الصباح وقررنا أنه لابد لنا من دليل يرشدنا إلى القنطرة رأسا ، وبذلك يسهل علينا السير خاصة بالليل وهو أنسب الأوقات لقطع المسافات الطويلة لرطوبة الجو وليونة الأرض ، ولذلك ما إن رأينا صاحب الأمن حتى أخبرناه بحاجتنا إلى دليل فراح يبحث عن دليل . وفى هذه الاثناء طلبنا الناقة لتحميلها فقبل لنا إنها « شردت » أى سارت فى الصحراء ولا علم لأحد بها . هنا ثارت ثائرتنا وقدردنا المسئولية الواقعة على عاتق

الإعرابى صاحب الأمس وأنه لا بد واجدها وأنا سوف لا نتحرك حتى تحضر الناقة . قلنا هذا وكان معنا أكثر من رشاش وطبنجة للدفاع عن أنفسنا وبعد ساعة تجمع حولنا كثير من الأعراب والسماصرة ثم شاهدنا صاحب الأمس يسوق ناقتنا الحبيبة إلينا فكانت نجدة أخرى جميلة من الله .

حملنا الناقة ومر بنا أكثر من رجل يملؤهم اللؤم والمكر لا تعرف ماذا يقصدون ولا تستطيع أن تنال منهم أى مساعدة أو رجاء . وأخيراً عرض علينا صاحب الأمس شاباً أسمر وقال لنا ان هذا تطوع لإرشادنا حتى يثر العبد بأربعة جنيهات تدفع اثنين له ليسلمها لأهله ليأكلوا منها ، والاثنان الباقيان عندما نصل إلى يثر العبد ، ففرحنا وشكرنا الرجل جهده وجميله وأعطيناه عنواننا بالقاهرة ليتفضل مشكوراً بزيارتنا وأفهمناه أننا على استعداد لمعاونته فى أى خدمة .

كان الشاب العربى المرشد تقياً ويتدلى من يده سبحة سوداء فاطمأنت لذلك قلوبنا إليه ، وظل يحدثنا فى الطريق عن الاستقامة والدين والله والرسول ويدلى لنا بالمواعظ المختلفة ونحن حامدون لله شاكرون له فضله أن بعث إلينا برسول من عنده يهدى إلى الرشد ويرشدنا إلى طريق يثر العبد .

اشتد بنا الجوع أثناء الطريق فأخطرناه بذلك فخرج بنا على خيام قال لنا إنها لأقربائه وأن المنطقة التى نسير فيها من دائرة اختصاصه وأهله . أعطيناه جنيها أحضر به فرختان قامت بطبخها مشكورة إحدى قريباته فى حلة سوداء بعد أن قطعها قطعاً مختلفة من الأجنحة والأرجل المملحة لدرجة عالية مع بعض الماء الأصفر الشديد الملوحة أيضاً وبعض الأرزغة من الشعير الأسود ، وكثيراً من العجوة المرملة . أكلنا وحمدنا الله على ذلك فقد كان ذلك أول لحم يدخل بطوننا بعد مدة طويلة واعتبرناها وليمة الرحلة الكبرى .

تابعنا السير حتى اصفرت الشمس وأذنت بالرحيل فخرج بنا على بعض الخيام وهناك وجدنا امرأتان إحدهما عجوز ظلت تناوشه فى الكلام وتراوشه كما ظلت الأخرى تداعبه بالالفاظ ويداعبها . المهم انه استخرج لنا من عندهن شايًا وسكرًا وشربنا وحمدنا الله كثيرًا على شاي العصر هذا كأننا فى إنجلترا .

انشرحت صدورنا لهذا الترحاب من الاهالى وتفضل الله علينا بأن هيا لنا الدليل اللبق الماهر .

تابعنا السير حتى جن الليل علينا واستنهضنا همة الدليل وأخطرناه أننا نريد أن نسير الليل كله حتى نصل بأسرع وقت . فوافقنا على ذلك وما أن بدأنا مرحلة حتى أراد الوقوف والمبيت حتى تبرز الشمس فقلنا له إن الليل أحسن للسير من النهار فتظاهر بالرضا وبدأنا مرحلة أخرى حتى عاد يقول لنا أن اليهود قريبون من هنا وأنه يلزم الاحتياط واتباع الحذر ، ولذلك فإنه سيسير أمامنا على أن يتبعه أحدنا خلفه ببضعة خطوات ثم يليه آخر وهكذا فوافقناه وابتدأ السير حتى عاد يقول لى هات الطبنجة التى معك فسألته لماذا ؟ فقال لادافع بها عن نفسى إذا قابلنى اليهود ، فقلت له إننا معك وخلفك وهذه صناعتنا الحرب والضرب فلا حاجة لك إلى الطبنجة فقال : إذن أنت تخوننى . أنت لا تثق بى قلت له اترك موضوع الثقة والخيانة وقم بواجبك المأجور له وهو إرشادنا إلى الطريق فقط وليس لك أى شئ آخر خلاف أجرك ، « فإذا قابلنا اليهود ستجرى حضرتك إلى أهلك أما نحن فنضطر إلى استعمال الأسلحة الموجودة معنا » .

فغضب وسار أمامى وبدأ يجرى وسط كومات الحشائش وكان الليل بهيما فأخذ يظهر ويختفى أمام عيني وأنا أسرع ورائه ولكنى بعدت عن باقى القافلة التى تسير ببطء حسب سير الناقة فناديت على الدليل فوقف . حتى اقتربت القافلة وأخبرتهم بموضوع هذا الدليل . فأكدنا عليه أنه لابد أن يسير معنا على راحتنا لأن الناقة بطيئة ونحن مجهدون من السير الطويل السابق .

فقال إننا لابد أن نتابعه وأنه سيقوم منتصباً إذا رأى أى خطر أمامه وعلينا أن نفعل مثله . وزعم أن اليهود على بعد أمتار منا وأحاط نفسه بنطاق من الخوف والهلع أو هكذا صور لنا حتى أطمأننا إليه وقررنا السير .

سار أمامى وأسرع مرة أخرى فى السير حتى صعد فوق تبة عالية وعند وصولى إليها لم أجده أمامى . . ناديت عليه فلم أجد سميعاً ولا بصيراً . اختفى مرة واحدة بين الحشائش العالية قليلاً فى منتصف الليل .

ظللت واقفاً مكاني فإن السير فى الليل يختلف عنه بالنهار ، ولو تحركت أى خطوة سننفصل عن باقى القافلة ونشرد هنا وهناك إذا ما فكرنا فى البحث عن هذا الدليل .

ولذلك اجتمعنا نحن الثلاثة زملاء وقررنا أنه لابد من متابعة السير فى اتجاه الغرب متخذين النجوم والبوصلة وسيلة للسير . كما قررنا أنه لا جدوى من الدليل الذى هرب . وأنه كان يود أن يسرق الطبنجة ويهرب وأنه ضحك علينا . طيب وماذا كنا نفعل لوقاية أنفسنا من (الخديعة) .. لا شئ .

فحمدنا الله أننا لم نوافقه على أخذ الطبنجة ، واعتمدنا على الله ثم على أنفسنا وتابعنا السير ليلاً لمسافات طويلة حتى سمعنا صوت نباح كلب . فأتجهنا إليه حتى وصلنا عنده فوجدنا خيام الأعراب وخرج لنا رجل عجوز سألناه الطريق فدلنا عليه بأن قال ضع النجمة كذا فى السماء على كتفك الأيسر وسر حتى تصطدم بئر المياه .

وكنا قررنا أن نتبع سلسلة الآبار حتى القنطرة فإنه آمن طريق من الجوع والعطش ولو أنه طويل بعض الشئ .

ومشينا حتى سمعنا نباح كلب آخر ووصلناه فخرج لنا رجل أطعمنا عجوة كثيرة وسقانا ماءً وقام معنا كدليل لأول بئر تقابله سار معنا حتى قرب الفجر فقررنا النوم للراحة وعاهدنا الرجل على المبيت معنا والسير نهاراً وربطنا مقود الناقة بأحد الجنود حتى نطمئن أنها لن تشرود فى الصحراء أو يسرقها منا أحد خصوصاً وقد أصبح الشك والارتياح ملء قلوبنا من الأعراب بعد حادثة الدليل الهارب .

قمنا فى الصباح فلم نجد صاحبنا العربى المتطوع فقد غادرنا دون أن نشعر فتممتنا على أسحلتنا وبضاعتنا فوجدناها سليمة فحمدنا الله على سلامتنا .

وحزمتنا امتعنا وتابعنا السير حتى وصلنا لبئر آخر وهكذا كان حالنا : السير ثم الراحة وقت الظهيرة لنستأنف السير باقى الوقت . ولما وصلنا منطقة رمانه عرجنا على بعض الأعراب فوجدنا تاجراً كان قد نقل أمتعته من رمانه إلى داخل الجبل ووجدنا عنده جنوداً كثيرة ، كما وجدنا بعض الحاجيات مثل الدقيق والسكر والشاى وعلب الأكل المحفوظة كالعدس والفلول واللحوم المحفوظة .

اشترينا منه كمية من كل صنف وعلبة من السمن واشترينا زوجاً من الفراخ قامت عائلته بطهيها فأكلنا وشربنا وحمدنا الله .

وعند هبوطنا عنده وجدنا رجلاً قصيراً يحمل سبعة سوداء فى يده ضاحكاً هاشاً باستمرار ، وكنا قد سمعنا عن الشيخ عيد أبو جريرة أحد مشايخ الطرق ويظهر أنه كان ذا

شهرة واسعة عند بعض القبائل وقيل لنا أنه إذا ذكرت اسمهم أكرمواكم أيما إكرام . وعلى هذا كنا نردد اسمه عند القبائل وانتمينا إلى حظيرته روحيا وكنت أقول فى نفسى إنه لا بأس من أن انتسب إلى رجل صالح أكرمه الله فكلنا فى الدين إخوان ، وعلى المسلم نجدة أخيه المسلم . وتمثلت قول النبى ﷺ « المؤمنون إخوة » وقول الله تعالى لنبىه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه (وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره) فما بالنا ونحن مؤمنين والحمد لله . فلا بأس إذن من الاستجارة وطلب النجدة من الرسول ﷺ وبالتالى أتباعه وأمتة لاسيما ممن اشتهر بالدين وحسن الخلق وأثر فى أرواح الناس بالورع والتقوى .

كان سرّاً إلهياً أودع قلب صحراء سيناء ، سر هذا الرجل الورع الشيخ عيد أبو جريرة الذى أحاطنى بموجة من الاتجاه الخالص إلى الله أثناء هذه الرحلة فى جوف الصحراء وكانت مناجاتى لله سبحانه وتعالى سرّاً وجهراً فى السراء والضراء ، وصار أملى فى النجاة عظيماً وصبرى على احتمال المشقة أعظم ، فلم يعد يعترينى بفضل الله فى أى لحظة سحابة يأس أو إظلامه قلب ، وكنت أحس بأن الله قد أكرمنى فعلاً طول الطريق ، بل قد أكرمنى فعلاً وأنا فى قلب المعركة وساعة التلاحن الرهيب والتصادم بين القوتين ، وكنت ساعتها أشعر بأن وطأة القتال شديدة وأنا منتصرون فتنجلي غمة الموقف .

نعود إلى تاجر رمانة مرة أخرى ونقول قابلنا هذا الرجل الصالح الذى يسمى الشيخ محسن وكنت أثناء سيرى قد علقت سبحتى السمراء اليسرى فى رقبتي ولم يظهر منها الا بضع حبات قليلة . فعندما ذكرنا له أننا من طرف الشيخ عيد أبو جريره قام محسن هذا وعانقتى عناقاً حاراً كأنه يعرفنى منذ سنين وقال مرحبا بك يا أخى فى الله ، والله إنى لقد عرفتك من وجهك الصالح ومن سبحتك السمراء لن أتركك وحدك ، وسوف أظل معك حتى النهاية . . عندئذ رق قلبى ومست كلماته شغاف روحى وأيقنت أن الله معنا بشكل واضح جلى وأنه أحاطنا برعايته ، فتعلقت بأهداب السماء وشكرت الله .

وبايعت هذا الرجل فعلاً بقلبي لا بعقلي فقط ، وأيقنت أنه رجل صالح لا مدع ونويت فى نفسى أن أصدقّه كلما تحدث أو كلما أشار برأى . ولقد صدق ظنى به على طول الطريق ؛ إذ أثبت الأيام أنه جندى من جنود الله فعلاً ، تقى ورع ، هادئ إلى الطريق الصحيح فى سيرنا وفى تصرفاتنا . فكان هذا كرمًا جديدًا من الله علينا الذى لا تحصى عطاياه .

دعوت هذ الرجل أن يقرأ معنا الفاتحة ويتعهد فى ارشادنا حتى القنطرة وله كل ما معنا من أموال وغيره ، وله أيضا أن نصحبه إلى القاهرة حيث نزور أهل البيت الشريف رضوان الله عليهم ونريه القاهرة فى ضيافة طيبة . فقرأنا الفاتحة جميعا على هذه النية ورضى بذلك طائعا مختارا بل رضى لله فى الله وقال أنا لا أساوم ولا أريد أن أطلب منكم مالا ولكننا طمأناه على حقه وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الرحلة كانت طيبة . وكان هذا الرجل بشيرا طيبا وقالأ حسناً لرحلة سعيدة بعد ذلك .

فى هذا المكان وجدنا خوذة صلب فضمامنها إلى متاعنا لكى نستعملها فى الشواء وإنضاج العدس وغير ذلك . واعتمدنا على الله وتابعنا السير ليلاً ونحن مطمئنين إلى مرشدنا الجديد الذى رَوَّح عن صدورنا كابوس السؤال عن الطريق باستمرار وأعتقد أنه وفر علينا نصف الوقت تقريبا لأننا كنّا نقطع مسافات طويلة فى الليل ، وعندئذ قررنا الراحة والنوم فانتحينا سفح جبل بعيد عن الريح الشديدة .

وأخذ الشيخ محسن يجمع الحطب فقد كان ليل الصحراء بارداً وارتفعت السنة النيران فشعرنا بالدفاء الجميل ، واخرجنا بعض السكر والشاى وشربنا وحمدنا الله ، والتفّع كل فرد منا بطايطيه وحفر لقامته فى الرمل وأسلمنا جفوننا لنوم هادئ مقرون ببعض القرفصة من البرد ولقصر البطانية حتى طلعت الشمس فواصلنا السير .

وهكذا ظللنا نتنقل من مكان إلى مكان حتى بدت لنا أشجار البلح الكثيرة كالواحات من بعيد فكان منظرأً يهيجاً بعد سير طويل فى رمل صفراء تكاد عيوننا تتلون معها .

جلسنا فى واحة من التخيل وأخرجنا الدقيق وقام الشيخ محسن بجمع الحطب هو وزملاؤنا الجنود الذين معنا ثم أتى بالماء من بئر الواحة وعجن الدقيق فى الخوذة وطلب ملحاً فلم يجد .

أشعل النار فى الحطب حتى صفت ألسنتها فأزاح الركام وبرزت حبّات الجمر حمراء صغيرة وكثيرة فوق الرماد . وفرد البطانية وبسط العجين فى هيئة قرصة كبيرة ثم نقلها على الرماد الأحمر ثم غطاها بجمرات النار حتى كادت تختفى . وبعد دقائق أزاح عن وجهها النار فوجدناها استوت . ثم قلبها مرة أخرى على النار وأعاد الكرة . وماهى إلا دقائق حتى أخرجها وأخذ يضرب وجهها بالبطانية لينظفها من التراب وفاحت رائحة القرصة كالقطير اللذيذ . وتهافتنا عليها تهافت الجياع على الوليمة وكانت نعمة كبيرة ما بعدها نعمة ثم

اخرجنا علبه من العدس وأفرغناها فى الخوذة وشربناها ساخنة جميلة ، وشربنا فى العلب الفارغة الأخرى ، والتي فسخنا غطاءها بواسطة سونكى صغير أخذناه من أحد الجنود لهذا الغرض .

وفى اليوم التالى قابلنا جمالا عليها بلح وعجوة واشترينا منها كمية كبيرة .

جلسنا وتعشنا خبزاً على الطريقة العربية فى الخوذة ، وعادونا السير ثم قررنا ان يسير بنا الشيخ محسن إلى أى رجل طيب يمكن أن نؤجر منه جمالا لكى نسرع فى السير ووافق على ذلك .

وظللنا تطوينا التلال والقفاز حتى دب الليل وسمعنا من بعيد أذان الله أكبر . .

انتعشت قلوبنا وشعشع فؤادنا وشدنا هذا الأذان إليه بقوة جارفة فقد أوحى الله فى قلوبنا الأمل العظيم وبشرنا بالغد المشرق المضئ . وكان كالماء العذب للظمان الشديد .

وجدنا أنفسنا أمام خيام العرب ورجالا كثيرين قاثمين للصلاة فصلينا معهم العشاء - ثم قابلنا صاحب المضيقة وكان تاجراً من بئر العبد أكرمنا وأحضر لنا الشاي والخبز واللبن المملح وكثيراً من الطعام غيره ، وبعضاً من الحلوة الطحينة .

وتدثرنا بالبطاطين والأكلمة والمخدرات وثماناً نوما هادئاً حتى الصباح فدلنا على عمدة بئر العبد لنجد عنده المعونة والجمال وغير ذلك ، وأعطانا بعضاً من الدقيق والعجوة فحمدنا الله على فضله وتابعنا السير .

كان حديث الليلة السابقة مع هؤلاء الأعراب شجياً مشجعاً وسمعنا فى تلك الليلة راديو القاهرة وأخبار مصر العزيزة التى فقدنا الاتصال بها عدة أيام قاسية .

١٩٦١/١٠/٣١

أعود إلى مذكراتى اليوم بعد فوات خمس سنوات كنت خلالها صامتاً لا أكتب ، ولكنى هفوت إلى الذكرى العزيزة اليوم وقرأت ما سبق أن كتبت فى مذكراتى . ووجدت نفسى وأنا أطالع نفسى من خلال هذه المذكرات القديمة أنى **فى قلب المعركة** من جديد ، ودفعنى هذا الشعور إلى الرغبة فى استكمال هذه المذكرات .

كنا قد وصلنا إلى رمانة ثم قابلنا بعض الأعراب الكرماء وكان عمدتها رجل ضخم

الجلثة . وانتهينا من العشاء والمبيت لديه داخل (الأحواش الجريد) وفى الصباح ، تابعنا المسير إلى بئر العبد . . وهناك وجدنا مجموعة من الاقيبة المصنوعة من الجريد على شكل نصف دائرة . . وكانت هذه المجموعة هى منازل العمدة وأسرتة .

كان العمدة واسمه « رزق » . طويلاً أسمر اللون قابلنا بالترحاب الكبير وأدخلنا أحد هذه المنازل وأحضر لنا مراتب ومخدات نظيفة ثم أحضر لنا ماء دافئ وصابون لوكس وكانت رؤوسنا قد أصبحت كفرورة الخراف وذلك من كثرة الأوساخ التى بها وذقونا طويلة جدا مخيفة وأقول مخيفة لأنه أحضر لنا مرآة ورأينا أنفسنا لأول مرة بعد المعركة وقد احترقت بشرة وجوهنا وطالت أهداب شعورنا ولحانا وشواربنا . وكان منظرنا مؤثرا على نفسيتنا . ولكن سرعان ما انتعشنا بعد أن غسلنا رؤوسنا ووجوهنا بالماء الساخن والصابون اللوكس . . ثم صمم العمدة أن يحلق لنا ذقونا . ففعلا أحضر إعرابياً وحلق لى ذقنى على الطريقة العربية وأصبحت كأحد مشايخ العرب فعلاً .

حمدنا الله على ذلك . . وعلى هذه النظافة . .

احضر لنا الرجل بعد ذلك قصعة من الفتة والأرز وعليها لحمه ضأن كانت ساخنة ولذيذة . وكانت أكلة دسمة التهنئتها وكان منظرنا لذيذا حقاً ونحن نأكل بشهية وبشعف شديدين ، وانتهينا من تناول الطعام فحمدنا الله وشكرنا الرجل الكريم .

وجلسنا نتسامر ، وأخذ العمدة عنوان كسل واحد منا وعلمنا أنه عمدة ، ويعمل بعض الوقت لسلاح الحدود السرى وأراد أن يضيف جميلاً آخر إلى كرمه فأعد لكل واحد منا جملاً مزركشاً بالكسوة المندشرة . وفى هذه اللحظة كان نصيبى جملاً صغيراً، وتركنا الناقة للأخ طلعت الذى كان قد بدأ يسيطر عليها لمصلحته فقط حتى سئما من حركاته هذه .

وابتدأنا ننفر من تصرفاته وأنانيته وفضلنا أن نمشى على أقدامنا حتى لا نركب الناقة التى يقول إنها خاصة به .

وعلى هذا كنت سعيداً جداً بأن أبدلنى الله عنها الجميل الشاب الأنيق . وإن كنت لأنسى فضل الناقة علينا جميعاً وقت العسرة وطول الرحلة .

ووقف العمدة وأسرتة يودعوننا وداعاً حاراً وبعث معنا بابنه الأكبر - ليرافقنا حتى نصل إلى القنطرة - فشكرنا وحمدنا الله عز وجل وسارت القافلة فى اتجاه القنطرة .

وبتنا ليلة بجوار أحد البساتين ثم تابعنا السير فى اليوم التالى إلى القنطرة ، وكان قد انضم إلينا عسكري آخر كان مصاباً بهستريا عصبية إذا طارت طائرة فوق رأسه وكان يجرى حول نفسه من الخوف والذعر ..

وصلنا مشارف القنطرة ومكثنا فى الظهيرة عند أحد العمد وكان ضخمة الجثة ، شهياً أعد لنا غذاءً شهياً فته : ولحمة ضأن وكانت روحه المعنوية عالية جداً ، وكان يقول انه يفضل الموت على أن يحكمه اليهود الكفرة .

وعرض علينا أموالاً مصرية للمعاونة أثناء الطريق ولكننا لم نقبل ، وحمدنا الله ثم شكرناه على كرمه وروحه العالية وغادرناه إلى القنطرة .

ولاحت لنا القنطرة عن بعد بأشجارها الباسقة والخضرة من حولها . ودفعنا هذا المنظر الجميل إلى الإسراع لنصل قبل أن تغرب الشمس .

وعندما اقتربنا من القنطرة وجدنا الدبابات المحترقة والعربات المحطمة منتشرة فى أرجاء الصحراء والمدقات والطرق ، وكانت تعبر عن بشاعة الغارات الجوية فى هذه المنطقة .

وعند دخولنا القنطرة لم نجد لها عامرة بل خالية من الناس ولكن سمعنا طلقات نارية صادرة من بنادق فى كثير من الأحيان وفهمنا بعد ذلك ان هذه الطلقات تصدر من بعض العصابات التى احتلت المدينة ونهبت مخازنها ، مخازن الدقيق والزيت والسكر و مخازن التموين ، ومخازن تموين الجيش أيضاً ، حتى إننا سمعنا أن الجوال الدقيق كان يباع بخمسين قرشاً .

أين المأمور .. وأين رجال الحدود ... لا أحد .

وصلنا إلى قناة السويس وفرحنا فرحاً غامراً وهنأنا أنفسنا وحمدنا الله أننا وصلنا إلى وادى النيل .

ودعنا المرافقين لنا وأخذوا جمالهم .. أما الشيخ محسن فرافقنا إلى البر الغربى .

وعند عبورنا القناة قابلنا أفراد الحرس الوطنى وكان معهم أحذية وصنادل وجزم كوتش ليسلموها لنا ولأمثالنا العائدين من المعركة حفاة الأقدام .. وكانت روحهم عالية جداً مما رفع معنوياتنا نحن أيضاً ، وعلمنا أن الأمة بخير .. بصمود أبنائها فى وقت الأزمات .

على أى حال أخذت صندلاً على مقاسى وركبنا جميعاً المعدة وتركنا متاعنا كله :
البطاطين ، والأسلحة ، وخلافه ، والناقة باسم الشيخ محسن .

وعبرنا معه إلى البر الغربى وهناك لم نجد أحداً من المسئولين لاستقبال العائدين .
ولكننا علمنا أن هناك قطاراً سوف يصل ليلاً ليحمل كل العائدين .

ولكننا رأينا عربة جيش مقبلة وأوقفناها ووجدنا بها ضابط إشارة عرفناه بأنفسنا وطلبنا
منه أن يأخذنا إلى رئاسة القطاع .

ولكنه قال إن الإعرابى محسن ممنوع من العبور لغرب القتال . فعاد آسفاً ونحن أيضاً
كنا اسفين لعودته ولكننا أعطيناه ما يقرب من عشرين جنيه دفعها له الاخ طلعت . ثم ركبنا
السيارة ووصلنا الإسماعيلية يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، ودخلت مبنى رئاسة القطاع ،
وكان بها كمال الدين حسين

استقبلنا إخواننا فى هذه الرئاسة بالبشر والتهنئة والترحاب وقدموا لنا الطعام والشراب
بكثرة . . وقابلنا كمال الدين حسين وسألنا عن احوالنا وكيف كانت المعركة ، ثم أمر بأن
ننام فى عمارة الخبراء حتى الصباح ثم نذهب إلى القاهرة .

وفعلاً وصلنا إلى العمارة . . كانت فاخرة مفروشة ومؤثثة أثاثاً فاخراً وكانت كأنها
حيه بأهلها فكل شئ فى محله حتى لعب الأطفال وأعمال الإبرة للسيدات وفساتين السيدات
وخلافه . . حتى الحمامات كانت بها انواع الروائح والبودرة وغير ذلك .

استحممنا والحمد لله . وذهبنا إلى غرف النوم الوثيرة الناعمة الطرية وجاءنا
مندوب الإذاعة وأخذ منى حديثاً أذيع بالراديو .

وفى الصباح ارتدى الزملاء ما وجدوه بالدواليب وكان تصرفاً لم يعجبني وأخذنا
العربات إلى القاهرة ، وكنت قد تكلمت فى التليفون مع الجيزة . وصلت الجيزة ووجدت
الأخ محمد هرمس الذى عانقنى وأخذ لى صورة تذكارية اعتر بها إلى الآن . .

وهكذا وصلنا إلى بلدنا المحبوب . . **من قلب المعركة** . . .



مقدم « بكباشي » محمود عبد الحميد الثالث

ولد يوم ٥ مارس ١٩٢١

ولد من جديد فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٥٦

واستشهد البطل فى اليمن يوم ٣٠ مارس ١٩٦٣

والحمد لله



واستمرت الأورطة الثانية الخفيفة المصرية تعطل العدو على طريق القضيمة - أبو عجيلة
إلى أن اصطدم العدوّ بدفاعات « أبو عجيلة » الرئيسية فتوقف

وهكذا مضت بجيلنا الأيام ، حلوها ومرّها ، انتصاراتها وهزائمها ، دموعها ودمائها ،
أبطالها وشهادتها ، على نحو ما عشناه مع هذا السيناريو الذى قصّه علينا البطل الشهيد
المقدم محمود عبد الحميد الثلث ويبقى أن نبدأ القصة من أولها .. فى قلب المعركة .